تثبيت العقيدة بقراءة القرآن والسنة

نحن الليلة أيها الأحبة في الله نحفل في هذا المسجد.....، يحدثنا فضيلة الشيخ العلامة الفاضل عبد الله بن جبرين عضو الإفتاء المتقاعد.... ويقدم فيها في أدلة العلم ليكشف لنا أثر القنوات الفضائية على المجتمع المسلم. أيها الأحبة لا أريد أن أخذ من وقته كثيرا.... ما يفتح عليه به فهو... لله تعالى فأتركه وأخلي بينه وبينكم. فليفضل جزاه الله خيرا. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. الحمد لله رب العالمين. صلى الله وسلم على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد؛ فإن الدين النصيحة كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، وكرر ذلك بقوله: { الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة. فقيل: لمن؟ - أي لمن تكون النصيحة- قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم } . ومعنى النصيحة هي الدلالة على ما فيه الخير، والتحذير مما فيه الشر. وهي من حقوق المسلمين بعضهم على بعض؛ أن من علم خيرا محضا لا ضرر فيه؛ فإن عليه أن يدل إخوته عليه؛ سواء كان مما يتعلق بأمور الدين، أو مما يتعلق بأمور الدنيا. وإذا علم المسلم شرا وضررا يتعلق بالأبدان أو بالعقائد أو بالأخلاق أو بالعادات المعتادة؛ فإن عليه أن يحذر إخوته منه، ويبين لهم خطره على أي شيء يكون ذلك الخطر. ولا شك أن الواجب على إخوته الذين دلهم على الخير، أو حذرهم عن الشر -أن يتقبلوا منه، وأن يمتثلوا ما نصحهم به وما دلهم عليه، وهكذا كانت حالة الأنبياء مع أممهم. قال النبي صلى الله عليه وسلم: { ما بعث الله نبيا إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، ويحذرهم من شر ما يعلمه لهم، وإن هذه الأمة جعل خيرها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وفتنة } هكذا أخبر صلى الله عليه وسلم. ولا شك أن نبينا صلى الله عليه وسلم قام بهذا البيان؛ بمعنى أنه نصح أمته وبين لهم الخير وحثهم على التمسك به، وبين لهم الشر وحذرهم من الوقوع فيه، وأوصى بذلك أمته أن كلا من هم عليه أن يبلغ ما تحمله، وأن يحذر الأمة عن الشرور التي تحرق بهم والتي تفتنهم، أو تفت في معتقداتهم. وفي هذه الأزمنة التي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنها آخر الأمة، أخبر بأنه يصيب آخر الأمة بلاء وفتن، وقد وقع ما أخبر. ورد في بعض الروايات { أنه يكون فتنة في آخر الزمان لا يبقى بيت إلا دخلته، أو دخله ضررها أو شررها } ولا شك أن الفتن يتفاوت ضررها وشرها؛ فمنها ما يعرض بالعقائد بحيث يحرف ويصرف المسلم عن عقيدته، ويوقعه في الكفر ويوقعه في الضلال، ويوقعه في البدع أو في المعاصي وكبائر الذنوب، ومنها ما يكون شره وضرره على الأخلاق وعلى الشيم والعادات الحسنة فيغيرها، ويدعو إلى الوقوع في المنكرات واقتراف المحرمات. ولا شك أن أولى بالإنسان قبل ذلك وبعده أن يسعى في تثبيت عقيدته. إذا علم أن هناك ما يفت في العقيدة وما يضر بها، وما يخل بها، يسعى في تثبيت معتقده قبل أن يفتنه من يريد فتنته، وقبل أن يضل من يسعى في إضلاله عن قصد وعن غير قصد. وطريقة التثبيت إلى العقيدة هي قراءة القرآن وتعلم معانيه، وتدبره وتعقل من جاء فيه؛ فإن فيه الشفاء وفيه النور وفيه الهدى وفيه البيان. وصفه الله تعالى بذلك كله كقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَنِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } فوصفه بهذه الصفات التي إذا تحققت للمسلم فهو على سبيل النجاة والفلاح والفاك. كذلك وصفه بالبيان في قوله: { هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } هذا الوصف للقرآن، وصفه بالهدى في قول الله تعالى: { ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } ؛ يعني دلالة لهم. وصفه بالنور في قول الله تعالى: { قَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا } وفي قول الله تعالى: { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ } وصفه بأنه نور، يعني تحيا به القلوب، ووصفه بأنه نور يهدي به الله تعالى من يشاء. فنوصي من أراد أن تثبت عقيدته بأن يكثر من سماع القرآن وتدبره وتعقله؛ ففيه ما يرسخ العقيدة التي هي معرفة الله تعالى بآياته وبمخلوقاته. إذا تدبر ذلك عرف أن ربه سبحانه هو خالقه، وهو خالق كل شيء. يأتي آيات متتابعة أو سور متتالية تجد فيها ما يرسخ هذه العقيدة، فتقرأ في سورة القيامة قول الله تعالى: { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مِّمِّي يَمْشِي ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَحَسَوَى } ذكر الله تعالى الإنسان الذي يحسب أنه مخلوق سدى، وأنه مهمل، وأنه لا يؤمر ولا ينهى؛ فذكره بعبارة خلقه؛ أنه خلق من نطفة: { أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مِّمِّي يَمْشِي } . كذلك في السورة التي تليها قول الله تعالى: { هَلْ أُنبِئُ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا } إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ } هذه آيات تدل على أن الإنسان إذا تعقها وتاملها -عرف أنه ما خلق عبثا، وأن الذي خلقه قادر على أن يحاسبه، وعلى أن يجازبه أو يعاقبه. كذلك في السورة التي تليها قول الله تعالى: { أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا } إلى آخر الآيات. يذكر الله الإنسان بهذه الآيات التي هي أمانة؛ إذا تعقلها وتاملها، عرف أنها ما خلقت عبثا. كذلك في السورة التي تليها { أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا } إلى آخر الآيات. يذكر الله الإنسان، ويأمره بأن يتفكر في هذه الآيات الكونية العلوية والسفلية التي يشاهدها. لا شك أنه إذا تعقل ذلك وكرره وتامله، عرف قدرة من خلقه. كذلك في السورة التي تليها { أَنْتُمْ أَشِدُّ حَقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا } إلى آخر الآيات. وهكذا فنوصي بقراءة القرآن، وبالإكثار من سماعه وتدبره وقراءة تفاسيره التي توضحه، التي تبين المعاني حتى ترسخ العقيدة؛ وحتى إذا جاءت الشبه التي تأتي بها هذه الإذاعات وهذه القنوات؛ اضمحلقت قبل أن تصل إلى القلب، احترقت قبل أن يوصلها المذيعون أو قبل أن توصلها الأسماع؛ حيث تجد عقيدة راسخة ثابتة في قلب المؤمن لا تتزعزع. كذلك أيضا عليه أن يقرأ في السنة النبوية فيما جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم؛ فيقرأ الأحاديث التي أخبر بها صلى الله عليه وسلم، والتي تدل على قدرة الخالق سبحانه وتعالى، وعلى ما نصبه من الآيات الكونية التي يلفت بها أنظار عباده إلى قدرته وإلى عظمته. وهكذا أيضا يقرأ في كتب السلف الأئمة الذين نصحوا للأمة الذين يحيون بعدهم، يقرأ في كتبهم ما يبينون به كيفية العقيدة. ولا شك أن العقيدة متى رسخت لم تتزعزع ولم يأت ما يغيرها؛ ولو كاد الإنسان من يريد كيدته؛ وذلك لأنه يعقد عليها قلبه؛ يعتقد بها قلبه وبمئتي قلبه، فيمئتي بتعظيم ربه سبحانه وتعالى، ويعترف بأن ربه الذي خلقه والذي رزقه والذي صورته وأحسن صورته، وأعطاه وأناه من كل ما يتمناه. يتذكر قول الله تعالى: { وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ } يتذكر قول الله تعالى: { أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً } . لا شك أنه إذا تذكر ذلك عرف أنه مربوب، وأن ربه ما خلقه إلا لعبده، وأن ربه سبحانه الذي خلقه والذي أوجده أهل أن يعبد وأن يحمد. كذلك يؤمن بالأدلة التي تدل على البعث والنشور، والتي دلت عليها الآيات والأحاديث والتي كررها النبي صلى الله عليه وسلم وأكدها؛ لأن من آمن بأنه سوف يبعث ويحاسب ويجازى على أعماله قبل الموت -حرص على أن يعمل لما بعد الموت، ف الكيس من دان نفسه { يعني حسبها، دانها واتهمها بالتقصير والنقص } والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمانى } . فإذا دان نفسه، واتهم نفسه بأنه ناقص، وأنه محل للواجبات؛ فإنه يرجع إلى نفسه ويحاسبها، ويعمل الأعمال الصالحة التي تنجيها في آخرته. هذا هو الذي يجب على المسلم؛ إذا آمن بأنه بعد الموت محاسب ومجزى بعمله إن خيرا فخير، وإن شرا فشر؛ آمن بأن الناس كلهم يعنون، وأن ربه سبحانه سيجازيهم على أعمالهم { قَمَرٌ يَعْمَلُ مُنْقَلَبًا دَرَجَةً حَتَّىٰ يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ } ؛ وإنما ستنصب الموازين، وتنشر الدواوين، يقول الله تعالى: { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَاهَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ } { حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ } . فلا شك أن عليك أن تقر ما يرسخ هذه العقيدة في ذاكرتك وفي قلبك؛ حتى تكون من أهل الإيمان الصحيح، الإيمان بالله تعالى وعظمته وقدرته وسيطرته على العباد، وأنه لا تخفى عليه خافية، وأنه يسمعك ويراك أينما كنت، تأمل قول الله تعالى: { الَّذِي يَرَاكَ جِئِن تَقُوْمُ وَتَقْلَبُ فِي السَّجَادِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } كذلك تؤمن بأنه يسمع ما تقوله وما تسره ويعلم ما تخفيه، كما يقول الله تعالى: { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى } { يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى } من السر؛ أي ما لم يخطر بالبال؛ ولكن يعلم الله بأنه سوف تحدث به نفسك فيما بعد، فهو عالم بك. من استحضر أن الله تعالى يراه فإنه بلا شك يعيده حق عبادته؛ ولذلك فسر النبي صلى الله عليه وسلم الإحسان بقوله: { أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك } ؛ فعلى المسلم أن يسعى فيما يقوي معرفته بربه، ومعرفته بالدار الآخرة، ومعرفته بالثواب والعقاب، والجنة والنار؛ حتى يستعد لما بعد الموت. لا شك أن الله تعالى يبث عبادته في هذه الدنيا بلبايا وبمحن وفتن وتضلعه وتسعى في إضلاله إلا إذا ثبت الله؛ فلذلك يسأل ربه ويقول: { رَبَّنَا لَا تُرِخْ فُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا } . فإن هناك من زاعغ قلوبهم، وضلوا عن سواء السبيل، وانحرفوا بعد الاستقامة، وضلوا بعد ما كانوا على سبيل الهداية لأسباب كثيرة أوقعتهم في ذلك الضلال وفي ذلك الانحراف. قال الله تعالى: { قَلَمًا رَّاعُوا أَرَأَيْتَ لَوْ تَوَلَّوْهُمْ } ؛ لما أنهم انحرفوا عن الهدى والاستقامة أضلهم الله وأزاع قلوبهم؛ ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من سؤال الله تعالى الثبات والاستقامة فيقول صلى الله عليه وسلم: { اللهم ثبت قلوبنا على طاعتك } يكثر من الدعاء بالتثبيت فقيل له في ذلك، فقال: { إن القلوب بين إصبعين الرحمن يقلبها كيف شاء، فمن شاء أزاعه، ومن شاء أقامه } .